مقدّمة المترجم

من الانفس ما تهبط العالم غلاّبة ، مرهفة الذهن ، بعيدة الوعي ، فاذا هي كالمصابيح يعكس عليها النور الالٰهي الفائض كي يهتدي بها غيرها الى غاية الحياة . تلك هي الانفس العبقرية المختارة التي تعرف الحقَ والحقُ يحررها ، فلا يحصرها الزمان ولا يأسرها المكان لانها في كل زمان ومكان ، بل فوق الزمان وفوق المكان . هي تلك التي تنفذ كالسهم الحاد الى مكمن اليقين ، وتنبش كنز الحقيقة لتذيعه صرفاً على الازمان والاجيال ، هي تلك التي تكبّ الانسانية على رشحات اقلامها كي تهتدي في دياجير هذه الحياة الى بصيصٍ من نور الفلك الاعلى .

من تلك الانفس الحارة الفيلسوف الافرنسي الكبير هنري برغسون ، وقد جاء الارض قبساً من نور العلاء في وقت اعتمت فيه الانسانية كفراً ، وغمطت نعمة ربها بسبب ما اضلّها من فلسفات حسّية مادية . وقد كان الفكر ، يوم اعتلى برغسون منصة الفلسفة ، يتخبّط في حلك دامس من الشك طيلة القرن التاسع عشر ، فاسرع هذا الفيلسوف الى اقالة الروح من عثارها في شرك الحواس ،وانهاض الانسان من المادة التي تحكمت به . واذا القينا نظرة عجلى على تاريخ الفلسفة منذ اقدم عصورها حتى ظهور البرغسونية ، تبرز لنا عند الاغريق فلسفات كليات عقلية ، ومثل* مطلقة ، وبرهنات قياسية* . فهي جدلية* الطابع مثالية* عند افلاطون ، وتغيّر كيفي* للمادة والطبيعة عند ارسطو . ذلك كان بالاجمال مصاص الفلسفة اليونانية .

---

* ان الكلمة المرفوقة بهذه العلامة تجد معادلها الافرنسي في آخر الكتاب .

ثم جاءت القرون الوسطى فاعتدّ فلاسفتها بالثقافة اليونانية اعتداداً كبيراً ، وكان كل همهم التوفيق بين العقل والايمان ، بين الدين والفلسفة، بين الكتب المنزلة وما ذهب اليه افلاطون وارسطوطاليس. وبذلك حاكى اللاحقُ السابقَ ،وسار على سننه مقيّداً بتعاليمه خاضعاً لحكمة الاغريق كأنها فوق كل نقد وبمنأى عن كل اعتراض. ثم اطلّت الفلسفة الحديثة ، فثارت عادلة عن تلك المشاحنات اللفظية والبرهنات القياسية الكلامية التي افنى فيها المدرسيون* اعمارهم ، فغيّرت ، وسنّت السنن الجديدة ، وقعّدت القواعد الخاصة في الملاحظة والاستقراء*،حتى استبدلت الجدلَ الارسطي بالمنهج النقدي* الديكارتي، واستعاض (بيكون) في منهجه التجريبي* عن الكليات* بالجزئيات* ، وذهب الى القول بالكم** عوضاً عن الكيف* ، وهكذا قفزت الفلسفة من القياس الى الاستقراء، من الكليات الى الجزئيات ، من الفكرة الى القانون*، ومن الاعتقادية* الى النقدية* ، وبذلك وضعت اساسات العلم الحديث . واذا كانت الحكمة اليونانية قد اعتبرت العلم رقعة عالقة على ثوب الفلسفة، فقد اراد الفلاسفة المحدثون منحها دقة العلوم، وتوجيهها توجيهاً علمياً كما حاول (ديكارت) و (كَنت) . وقد ظلت الفلسفة ذات طابع علمي آلي* حتى ظهرت البرغسونية في اواخر الجيل الماضي ، فصوّبت سهاماً حادة من لاذع النقد الى الفلسفات العقلية* القياسية ، وهدمت ادعاءآت الآلية ، والمادية* ، والايجابية* ، والاثنلافية* (مبدأ تداعي الافكار) ، والتطورية* السبنسرية ، ساحبة الفلسفة عن العقل المنطقي المحلل ، مقصية اياها عن العلوم الآلية ، مستشرفة بها قبلة جديدة هي الصوفية . وهكذا نراها حدسية* في البرغسونية ، بعد ان كانت عقلية قياسية عند الاغريق ، وعلمية قانونية عند (بيكون) و (ديكارت) ونقدية عند (كَنْت) . وقد سعت البرغسونية سعياً حثيثاً ، فاجتاحت فرنسا اولاً ، فاوربا ، فالعالم الجديد ، لأنها وليدة توق شديد لازاحة البراقع عن جوهر الانسان الروحي. وقد ختم مركاضه الفلسفي في اواخر عمره بكتاب هو ابعد ما كتب غوراً في مثل هذا العصري الآلي النزعة بتفكيره ، اماط به اللثام عن الحقيقة الدينية وواجب وجودها بمثل قوله : « اننا نعثر في ثنيّ الحقب الماضية ، وطيّ العصور الحاضرة ايضاً على شعوب لا تمارس علماً من العلوم، او فلسفة من الفلسفات ، او فناً من الفنون ،

ولكننا لا نجد البتة شعباً من الشعوب لم يتّسم بميسم دين من الاديان في يوم من الايام (١) » .

ان البرغسونية رسالة فلسفية، دينية اصلاحية، ولوحة من لوحات الفكر الافرنسي الخالد ، ذلك الفكر الذي استطاع (بعقليته*) المتزنة ان يكون حكماً عادلاً بين التجريبية الانجليزية والمثالية الجرمانية . وقد كان من حظي ان اقف على دخلة البرغسونية ، وان اجيل النظر فيها مراراً حتى تشربتها روحي ، وتصيّرها فكري . فانا مدين الى البرغسونية بتفكيري الفلسفي ، ولا يسعني الا الادلاء على رؤوس الاشهاد انني من اشياع هذا الفيلسوف ، ومعتنقي مذهبه الصوفي العقلي . واذا كان ثمة من قوة فكرية واعية تدرّبتُ عليها مع غيرها لتفهم الايمان وادراك كنهه ، انما هي الفلسفة البرغسونية . لذلك رغبت في نقل هذه الشرارة الفلسفية الى لغتي ، وادناء قطوفها للناطقين بالضاد ، فيكون عملي هذا سداداً لثغرة وسداً لعوز فلسفي يفتقر اليه الشرق العربي اجمع في هذه اليقظة التجديدية .

اما الكتاب الذي نحن بصدده « رسالة في معطيات الوجدان البديهية » فله قيمتان : قيمة عامة من حيث مركزه في تاريخ الفكر الانساني ، وقيمة خاصة من حيث مركزه بين مؤلفات برغسون ، واحتواؤه على فكرة الدوام* نقطة الانطلاق في هذه الفلسفة الحدسية . ويرجع تاريخ ولادة هذه الفكرة الى ما يلي :

من المعروف ان لكل فلسفة تاريخ ولادة يشذّ بها الفيلسوف عن المقاييس العامة في حياة الناس اذ يسمع فيها هاتفاً يهمس في قرار نفسه ان سرْ في المسلك هذا . ولا اجد اشهر من حادثة (ديكارت) واعني بها حادثة (المدفئة) في المانيا شتاء سنة ١٦١٩ ، وقد كان في حجرة دافئة وحده ، لا انيس ولا جليس . فقضى سحابة يومه يفكر في المعارف الانسانية وكيفية الوصول الى الاحاطة بها احاطة جامعةً شاملةً . ولما جنّ الليل ، وركدت نفسه في المنام ، انعكست عليها هذه الافكار في احلامه كأن همساً خفيفاً اخذ يتف في عالمه الباطني مستحثاً اياه لوضع دعائم الفلسفة الجديدة والعلم الحديث . فما اقدسها سويعة خالدة كهذه في عالم الفكر سارت وراءها الانسانية جمعاء

---

(١) انظر كتابه « مصدرا الاخلاق والدين » وجه ١٠٥

بعد ذلك منحنية الرأس خاشعة لصدق منبعها وقوة مغرسها . وهكذا كان لبرغسون ازمة فكرية حدثت له في كلارمان فران (CLERMONT-FERRAND) اخرجته بذلك من تيهانه العقلي وانزعاجه الفلسفي ، فاذا به يحمل مشعلاً خالداً الى عالم الفكر . وقد ساعده على هذا الانفتاح الباطني مركز البلدة عينها ، وهي من الاماكن التي تدفع بالانسان الى التأمل والتقصي . وكم من مرة بعثت هذه البلدة الى الكثيرين من المفكرين اشراقاً داخلياً كان له الاثر البعيد في تاريخ الفن والفلسفة . وحسبنا تذكرة فقط بعبقرية (بلاز بسكال) هذا الجبّار الخالد الصامد على مكر الحقب ، وعبقرية (رامو) في الموسيقى وهو الذي كتب مؤلفه المعروف عن التناغم*. وكم أنس برغسون من هذا التآخي بينه وبين الطبيعة ، لا سيما وقد كان يشعر بالهمس الخفيف الذي تتمتمه ذكريات (بسكال) الرابضة في ذاك الجو الساكن ، كأنها اسلاك خفية تشدّ هاتين الروحين بعضها الى بعض فوق الزمان وفوق المكان ، فيتراسلان ، ولغتها الصمت ، بالمكاشفة الباطنية من خلال الازمان والاجيال . وقد ترك لنا احد تلاميذ برغسون وصفاً لهذه الازمة الفكرية قال في آخره : « كان هنري برغسون يستعذب النزهات القصيرة المريحة للجسم بتمرين صحي دون ان يشطّ الفكر تائهاً بجديد المناظر الخارجية . وكثيراً ما كان يتجاوز شارع طرودان (TRUDAINE) بعد خروجه من الليسا حيث كان يسكن ، فيستسلم الى سائلية الاحلام . وقد اتفق له مرة ، بعد انتهاء الدرس ان بسط الى تلاميذه برهنة (الايليين*) فانبلجت فجأة فكرته الرئيسية في فلسفته ، وتبلورت في قرار نفسه(١) . » ولا شك بان فكرة الدوام انما هي نقطة الارتكاز في هذه الفلسفة وعمادها الاول . وقد تضاربت الآراء كثيراً ، وتناحر الباحثون عن جذور هذا الصرح الفكري الشاهق ، وتخبّط النقاد في ديجور الشرح والتعليق ، حتى اسرع برغسون في آخر الامر الى كشف القناع بنفسه عن هذا اللبس والابهام ، فكتب الى هرلد هوفدنغ (HERALD HOFFDING) سنة ١٩١٦ رسالة جاء فيها ما يلي : « ان كل مجمل تلخيصي لنظرياتي يفسدها في مجموعها ، ويعرضها في عرفي بذلك عينه لانتقادات جمة ، إن لم يتمركز

(1) LA PENSÉE D'HENRI BERGSON, par Joseph Desaymard p 11. Paris Mercure de France 1912.

دفعة واحدة ويرجع دائماً الى ما اعتبره انا محور مذهبي الفلسفي اي حدس الدوام (١) . » فلا حاجة بعد ذلك الى التيهان والبحث بعيداً عن الفكرة المحورية التي انطلق منها برغسون في بناء هذا الصرح الفكري. ولذلك آثرنا ترجمة هذا الكتاب الحاوي على فكرة الدوام، لأنه الخطوة الاولى في رحلتنا البرغسونية هذه .

اما من حيث مركز هذا الكتاب في تاريخ الفكر الانساني فهو كما يلي : ان علم النفس الحالي يعمل على ان يثبت كوننا ندرك الاشياء الخارجية ، اي العالم المادي ، من خلال (انا) ، وبذلك يصعب علينا كثيراً ادراك الطبيعة كما هي بل كما تصطبغ بوجدانياتنا من خلال غشاء النفس. وهكذا تفسد المظاهر الخارجية فلا نعود ندركها في واقعها بل وفقاً لما تتلون به على ضوء حالاتنا النفسانية . هذا موقف علم النفس اليوم وهو بذلك يقتفي اثر الفيلسوف الالماني (كَنْت) في كتابه (نقد العقل الصافي*) . وقد تراءى لبرغسون ان ثمة مجالاً آخر لطرح المشكلة على انفسنا بطريقة معكوسة ، والتساؤل هل اذا كانت (انا) ، التي نظن بانها في متناول يدنا مباشرة، لا ندركها في الاعمّ الاغلب من خلال الطبيعة الخارجية التي تُرجع لنا ما استدانته منا ، مشوّهاً بطابعها المادي . فاذا صحّ هذا الافتراض يستعسر علينا الوقوف على حقيقة (انا) في استلوانها الخاص لانها تكون قد لقّحت بميزات العالم الخارجي . وهكذا نتعرّض بدورنا لتلوين (انا) وفقاً للاطار الذي نضعها فيه وهو المادة . فاذا كان العالم الخارجي مادة، والمادةُ في المكان ، والمكانُ يخضع للقياس وللتجزئة لانه جامد لا يدوم ، وبذلك يناخ لسطوة العلم ، والعلمُ لا يقبل الا الجبرية* في المظاهر الخارجية ، كان من الواجب علينا ان نسلخ (انا) عن المكان لأنها دوام ، والدوام كثرة متغايرة الاجزاء خلاّقة كيفية، لا كثرةٌ عددية فضائية، وبذلك تتمرد وجدانياتنا على الجبرية، وتثبت فكرة الحرية . هذه هي المشكلة التي يجابهها برغسون في هذا الكتاب مشكلة الحرية النفسانية كما يقول هو في مقدمته (وقد ولّينا وجهة بحثنا نحو مشكلة وقع اختيارنا عليها من بين عرمة المشاكل ، وهي مشكلة الحرية المشتركة بين الالهيات وعلم النفس . وسنقود

(1) CITÉE DANS « BERGSON » par Jaques Chevalier p. 72 Librairie Plon 1938.

دراستنا للادلاء بان كل جدل يحتدم معمعانه بين الجبريين وخصومهم يستلزم التباساً سابقاً بين الدوام والمكان ، بين التعاقب والتعاصر ، بين الكيف والكم : فاذا انحسرت هـذه الشبهة ، وازيح عنها اللبس والغموض ، قد تزول الاعتراضات القائمة في سبيل الحرية وتعريفاتنا لها ، وتتلاشى معضلة الحرية ذاتها الى حدّ ما) .

هذه لمحة عجلى عن مركز البرغسونية في تاريخ الفكر ، وعن مركز هذا الكتاب في تاريخ البرغسونيـة . على انني لا انكر ما قاسيت من المتاعب، وصادفت من المصاعب في شقّ هذا المسلك الوعر الشائك . فقـد ارتطمت بشتى العراقيل لفتح جبهة جديدة لمّا تزل بكراً حتى الآن في الشرق العربي في عصر انحطاطه الفكري. وكادت تخونني قواي ، وتقعد بي الذرائع ، وتتقاعس همتي لو لم يثبت قدمي ما يستحرّ في باطني من رغبة الى تفهم التراث الغربي ، ونقله الى لغتي العزيزة ، لانماء ثروة ادبنا وتفكيرنا . فعسى ان يكون الله قد اسبغ على هذه الترجمة من السلامة ما يمنحها رضى المنصفين من جهابذة الفكر ومناصرة المشتغلين بهذه الصناعة . ولا يسعني في الختام ، وانا امام واجب مقدس ، الا ان اقرّ بفضل المستشرق الافرنسي الكبير لويس ماسينيون لما ابداه من العناية الخاصة في الاطلاع على هـذه الترجمة وتنقيح بعض المصطلحات الفلسفية . وقد كان لاستاذيّ الكابتن فيليب بيانكي ومدامته ، وللسيدين جورج بونور وجان غوليه اليد الطولى في نشر هذا المجهود وابرازه الى عالم الفكر العربي . فانا مدين لهذه الشخصيات الكريمة لمساعدتها اياي في تحقيق هذه الامنية الفكرية العزيزة على كل ناطق بالضاد .

تشرين الاول سنة ١٩٤٥

كمال يوسف الحاج

تصدير

نعبّر عن آرائنا اضطراراً بالفاظ ، ولا نفكر اغلب الاحايين الا تفكيراً فضائياً ، وبعبارة اخرى ان اللغة ترغمنا على ان نجعل بين افكارنا ذلك التفكك عينه ، وتلك الفوارق الجليّة الدقيقة ذاتها التي نقيمها بين الاشياء المادية . ان هذه التسوية نافعة في حياتنا العملية ، ولازمة في اكثر العلوم . غير انه يمكننا التساؤل هل اذا كانت الصعوبات المنيعة التي تثيرها بعض المشاكل الفلسفية لا تنجم عن تمسّكنا الشديد برصف المظاهر اللامكانية في حيّز المكان ، وهل اذا كنا لا نصرم حبل تلك العراقيل احياناً بتغاضينا عن الصور الثخينة التي تحتدم حولها تلك المشاحنات . فعندما نترجم اللامتمدد بالممتد ، ونعبّر بالكمّ عن الكيف ، مقيمين التناقض هكذا في قلب المشكلة المعطاة من جرّاء هذه الترجمة المشوهة ، هل نعجب بعد ذلك من رؤية التناقض ثانية كائناً في الحلول التي نستخرج بها هذه المشكلة ؟

لقد ولّينا وجهة بحثنا نحو مشكلة وقع اختيارنا عليها من بين عرمة المشاكل ، وهي مشكلة الحرية المشتركة بين الاخلاقيات وعلم النفس . وسنقود دراستنا للادلاء بان كل جدل يحتدم مع معانه بين الجبريين وخصومهم يستلزم التباساً سابقاً بين الدوام والمكان ، بين التعاقب والتعاصر ، بين الكيف والكمّ : فاذا انحسرت هذه الشبهة ، وازيح عنها اللبس والغموض ، قد تزول الاعتراضات القائمة في سبيل الحرية وتعريفاتنا لها ، وتتلاشى معضلة الحرية ذاتها الى حدّ ما . وقد خصصنا الفصل الثالث من دراستنا هذه لتلك البرهنة ، اما الفصلان الاولان اللذان بحثنا فيهما عن الشدة والدوام فهما بمثابة مدخل له .

شباط ١٨٨٨ هنري برغسون